المنظور الروائي في ثلاث روايات موريتانيه

●محمد بن عبد الحي ـ قسم الترجمة

الرواية فن نثري مادته أفكار. فلا عبرة بالحكاية وإنما العبرة بما يقوله الكاتب من خلالها، فالتأليف الخطابي هو الذي يشحنها بالطاقة الفكرية التي هي الرسالة التي يريد الكاتب أن يبلغها للقارىء. وهي رسالة قد تكون مقنعة مركزة أو ساذجة ضحلة تبعا لقدرة الكاتب على إقناع قارئه بأن النتيجة تتفق مع خبرة القارىء بالحياة، أو مع الحياة كما خبرها الكاتب. ومع هذا فيكفي الفنان أن يصور قضيته تصويرا سليما جميلا. إن الرواية صورة للحياة، فيجب أن تكون صادقة حية مقنعة كالحياة، ولكنها صورة فنية للحياة فقد تكون الفكرة التي هي مادة الرواية فكرة سيئة، ولكن فكرة أية قصة تتحقق بتحقق القصة ذاتها. ومن القبح قد يتولد الجمال.

ولتلقائية الفكرة أنصار يرون أن الفكرة تدعو الفكرة بمنطق طبيعي حر فيكفي أن ندفع بالشخصية إلى معمعان الاحداث لتشق طريقها تلقائيا، فالكاتب يسير وراء الاحداث ولاحاجة به إلى استباقها. غير أن كتابا آخرين يخضعون أدبهم لعملية صياغة واعية صارمة: «الفنان ـ كما يقول اليوت ـ يصنع فنه كما يصنع النجار رجل الطاولة» [١] وقد يكون التناقض بين الوجهتين تكاملا اذا اعتبرنا ان الفنان يدرك اللاوعي عن طريق الوعي الكامل فالقصاص القدير يخرج صورة المحيط من ذاته اخراجا لا تعمل فيه ولا تكلف.

والقصاص ينظر إلى إحداث حكايته وحركات شخصياته من منظور معين، يفسرها في إطاره فالذات المدركة لها دور هام في إدراك الموضوع المدرك، فالكاتب يخضع في رؤيته للاشياء لجملة من المؤشرات الايديولوجية والنفسية والتعبيرية. وهو يوجه رسالته إلى قارىء يتقبل بعض الاشياء ويرفض البعض، والكاتب يسعى إلى الحوار معه. والحكاية ترد على لسان راو قد يكون خارج دائرة الاحداث لايشارك فيها، ومع ذلك فقد يتجاوز الملاحظة الخارجية فيدس أنفه في كل شيء حتى في اللاشعورية الباطني للشخصية. قد يبدو أعلم من شخصيته بكل شيء: بالدوافع والافعال والنتائج. وقد يبتعد ويترك للشخصيات حريتها دون تعليق منه.

والحكاية قد ترد على لسان شخصية من الشخصيات تنقل الاحداث وتعلق على الشخصيات الاخرى بشيء من التجرد. وقد تنقلها كما تنعكس في منظورها الذاتي:

والاحداث والمشاهد قد تنقل بضمير الغائب سردا. وقد ترد في حوار مباشر بضمير المتكلم بين الشخصيات. وقد ترد من خلال التداعي الحر لشخصية من الشخصيات بضمير المتكلم. وقد ينقل الراوي الاحداث بكلامه الخاص، سواء نقله بضمير الغائب أو نقله بضمير المتكلم إذا كان شخصية من شخصيات القصة. وقد ينقلها بواسطة إقحام خطاب شخصية في خطابه الخاص. وهنا قد ينقل كلامها كما هو دون تغيير بأسلوبه المباشر الاصلي. وقد يحكيه بتغيير بسيط يمكنه من إدماجه في خطابه الخاص فيتحول إلى أسلوب غير مباشر، وقد يقترب الاخير من الاول حتى ليكاد يصبح إياه فيكون حينئذ أسلوبا غير مباشر حر. وقد لاينقل من الخطاب المقحم إلا مدلوله فقط.

● ونحن سنعالج وجهة النظر او المنظور والروائي في روايات ثلاث موريتانية سبق ان عالجنا في أول هذا البحث بنيتها السردية والوصفية* وهذه الروايات الثلاث هي:

١ ـ رواية الاسماء المتغيرة للكاتب احمد بن عبد القادر (ولد سنة ١٩٤١) المنشورة ببيروت (دار الكاتب) سنة ١٩٨١ وهي تحكي قصة شخص اختطف طفلا في القرن ١٩ من شمال (مال) واستعبد، وظل ينتقل من العبودية الى السجون الاستعمارية الى قهر الفقر وانعدام الانتماء والشيخوخة واخيرا مات بكوخ على بوابة المدينة الناشئة وخلال هذا الصراع

ثلاث عينات من فئات سكان الصحراء الموريتانية ضد الطبيعة والانسان والتحولات الاجتماعية والطبيعية التي شكلت هذه التحولات وتسعى الى تفسير البنية الاجتماعية والايديولوجية لهذا المجتمع قبل القرن العشرين.

٣ ـ رواية احمد الوادي للكاتب ماء العينين بن الشبيه (ولد سنة ١٩٤٣) المنشورة بأبوظبي ١٩٨٦، وهي تحكي أزمة رجلين نشآ في واحة صحراوية معزولة والتحقا بالمدارس الحديثة. وقد شرق احدهما نحو الثقافة العربية الاسلامية واقتنع من بعد بان يطلق الحضارة الحديثة ويعود الى قريته، ويبدأ مسيرة الحضارة من الصفر فأنشأ مدينة فاضلة لا علاقة لها بالغرب. أما الثاني فغرب نحو الثقافة الغربية ونمط حياتها المدنية، وعالم المال وعلاقاته في نواكشوط واسبانيا ولكنه في النهاية زج به في السجن،وتخلى عنه كل من يعرفه بمن فيه زوجتهوعند خروجه من السجن اسرع الى قرية صاحبه لتعصمه من المدنية الجديدة.ولكن بعد ان خربت هذه المدنية القرية وشتت شمل ذويها وتركت مدينتهم الفاضلة كأن لم تكن.

وسنعالج هذا المنظور في الروايات الثلاث من خلال المنظور الايديولوجي والنفسي والتعبيري باعتبار ان التجديد في الاجناس والاشكال والاساليب لا يجد مبرره الا في الدلالات اي في الرؤية ووجهة النهر...

أ ـ الرؤية الأيديولوجية:

يتألف عنوان رواية [الاسماء المتغيرة] من لفظين [الاسماء] بصيغة الجمع، والاسم ليس الشيء ذاته وإنما هو عنوان له. وتقابل الاسماء الافعال. وصفة [المتغيرة] تعبر عن الافعال، عن التحول، وقد جاءت خالية من الزمن لتوحي بدوام حدوث الافعال. وهي السمة التي طبعت الرواية كلها. فالزمان متغير باستمرار وتلك سمته، ولكنه أيضا مغير، فهو يغير كل شيء، يغير الطبيعة والكائن الحي، وذلك ما أثار عجب البطل: «قبل خمسين سنة كانت تكثر هنا أنواع من الشجر والنبات والزهور الصحراوية، ولم يعد لها وجود. إن الارض تتغير كما تغيرت أنا» [٢]... وليس الطبيعة وجسم الانسان هما المتغيرين وإنما لغته وتفكيره: «يقولونها [= إلى اللقاء] جميعا!. إن لغة هؤلاء الشباب جديدة وكثير منها لا أفهمه، إنهم يختلفون عن الناس الاولين في اللغة أيضا، حتى ولد الزبير. [...] وعلي شيخو أصبح يردد عبارات مثل «إلى اللقاء» و« شكرا» و«عفوا» و«صديقي أحبه لأنه وطني... ماذا يعني بوطني»؟ [٣].

إن العادات تتغير مثل الاسماء.. [٤] والرواية تعكس مسيرة المجتمع المتغير الذى لايعرف الاستقرار ـ مجتمع يتصارع مع طبيعة متغيرة قاسية تزحف فيها الرمال على الاشجار والنباتات وبالتالى على الانسان، فتقسو الحيوانات على الانسان: هجوم الاسد على القافلة [٥] ويقسو الانسان عليها «إنك سمين بسبب لحوم الارنب والاضب، هل تصطاد الضب؟ [٦].. ويقسو الانسان على الانسان: [عبد الصمد] ينتهز فرصة سقوط [أحمد سلوم] صريعا يدافع عنه وعن أصحابه فيسطو على جماله وعبده [٧] واللص يسطوا على الطفل [موسى] فيفر به ويبيعه [٨] والصياد [اعميرة] يسطو على ناقة الشيخ [حمود التى هي مصدر رزقه الوحيد. ولايكتفى بها بل يجرده من ثيابه. وأهل أحمد سلوم يهاجمون أهل [حمود] على جريرة لم يرتكبوها فيسبونهم أموالهم ويضربون رجالهم. والفرنسيون يمارسون شتى أنواع العسف ضد المواطنين... ويصور لنا الكاتب نماذج من الشخصيات فهذا [عبد الصمد] يدعي [الشرف] ويدعي المعرفة والتقوى وعلم الاسرار لاستغلال الناس والاحتيال عليهم وغشهم، وهو مع ذلك جبان: «لقد جربت الاستخارة [...] لوصاد فناه: [الاسد] لانشدت أبياتا من ابن مهيب وليتحولن هذا المخلوق [...] الى حيوان مسالم»... (٩).

هكذا يطمئن القافلة، ولكن عندما يحين الوقت يعجز عن أي رد فعل ويبدأ يهذى، ثم ينتهز فرصة انشغال كل بما يعنيه، فيسطو على مال الضحية ويهرب به. ولذا فعند ما يسأل الدليل ابن عمه عن صحة زعمه بأنه شريف وينبئه بالنفي يقول: «هو إذن دجال وسارق وكاذب» [١٠]. وهو يغير اسم العبد ليخفي أمره ويدعي أن ذلك للتفاؤل بالخير[١١]. وهو

[illegible] يدعي الشرف مع أنه يرتكب كل ما ينافي الشرف والكرامة ومع أننا وجدناه بعد أن أصبح شيخا يعترف بأخطائه ويعلن توبته إلا أنه مع ذلك مازال يمارس المخرقة كما هو بين من المشهد الذى التقى به فيه ابن عمه صدفة فى قرية من قرى شمال السنغال، وثمة شخصية أخرى صورة منه هي شخصية «الحجاب» [الراقى] الذى نزل بملاك العبد [البطل] المريض فادعى لهم ان العبد المسكين ساحر يستل القلوب بنظراته ويأكلها. فأنزلوا بالمسكين عذابا أليما كل ذلك من أجل أن يبتز هو منهم مالا بادعائه أنه أزال عنه السحر بعد أن أثبته عليه.

وتقابل هذه الصورة الشوهاء لفئة [الزوايا] صورة [حمود] الشيخ المسالم الذى يكدح على عياله ويضحى فى سبيل تعليم ابنه ليحفظ للاسرة مكانتها، فهو إنسان طيب السريرة لايخفى إلا ما يظهر، ولو أنه ضعيف ساذج. وتقابل هذا فى عنايته بتعليم ولده صورة زوجته فى عنايتها بتسمين ابنتها. هو يعده ليحظى بمكانة فى القبيلة، وهي تعدها لتحظى بزوج ما من القبيلة لأن «المرأة كلها عورة ولايسترها إلا أبناء عمها»... [١٣] ويمائل حمود فى سذاجته جمهرة الناس فأهل القافلة يصدقون عبد الصمد فى كل ادعاءاته دون مبرر وينكرون على من ينكر عليه: «إن الانكار على أبناء الصالحين يصدر من اسوداد القلب». [١٤]. ويقابل هذا الجانب صورة [أحمد سلوم] الذى أبرزه الكاتب شخصية خيرة يضحى بنفسه رغم شيخوخته ليفدى رفاقه: «وياله من عربي أصيل رائع».. [١٥]. وهو أيضا لايصدق بالادعاء فهو ليس واثقا من ادعاءات عبد الصمد: «إن بركة الشريف كافية لحماية جماله لأنها فى المؤخرة»... [١٦]. و«لو كانت للشريف قوة بهذا المستوى من الجبروت لما احتاج إلى حمل الملح من أعماق الساحل وإلى بيعه فى أعماق بلاد السودان»... [١٧].

والراوى يلخص الاحداث تلخيصا قد يتخلله بعض إبداء وجهة النظر غير المباشر: «تدافعت سنوات ١٨٩٢-١٩٠١ مسرعة عجيبة مفعمة بالاحداث المتلاحقة والجديدة: اشتدت حالة انعدام الامن وحروب ونزاعات القبائل فيما بينها واستفحل فى النهاية خطر الفرنسيين الذين عبروا النهر فى عدة نقاط مندفعين إلى الشمال بقيادة قائدهم [اكزافى كبولانى] وتنقلت الرسائل بين الامراء فى الجنوب والوسط والشمال داعية إلى تنسيق الجهاد» [١٨]. وهو يلخص موقف قبائل السلاح إبان دخول الاستعمار كما هو فى السرد التاريخي الواقعي ثم يلخص بعد ذلك موقف قبائل الزوايا: «أما قبائل الزوايا فقد مزقها جدل حاد واختلاف فى الاراء فمن قائل: ان النصارى خطر أصاب جميع بقاع المسلمين ولاقبل لهم برده. فى هذا الوقت. وعليهم أن يكاتبوا السلطة الجديدة على أن تتركنا على ديننا [...]، ومن امر بحمل السلاح والجهاد اقتداء بالقبائل الحسانية المسلحة»أو مراوح بين هذا الموقف وذلك مشدوه بهول الصدمة وعظم الخطب او مهاجر الى مدينة [العمارة] فى الساقية الحمراء حيث تتوطد حظوة الشيخ ماء العينين... [١٩]. فهذه هي المواقف التاريخية للمجموعات القبلية إبان دخول الاستعمار لخصها الراوى كما هي دون تدخل منه بينما تدخل فى النص قبله بعض التدخل «سرعة عجيبة» [٢٠] ولكن كثيرا من الاراء إنما يوردها على ألسنة شخصيات فى حوار مبدوء بعبارة مثل: وبدأ يستمع إلى خطاب مضيفه الرئيس: «اسمع يامرابطى» [٢١].

فعندما يريد الحديث عن اقتتال بعض القبائل إبان دخول الاستعمار يورد ذلك على لسان رئيس قبيلة العربان:

- «لايستطيعون، جبناء، ولو قدموا هنا لأغرقناهم فى بحر رمالنا»...

- «يجب ألا نستخف بهم فهم أهل كيد وحيلة ومكر، وجماعتهم واحدة وسلاحهم فتاك [٢٢]. وخصوصا عند ما يتعلق الامر بتفسير رأي أو إبدائه، فإن ذلك عادة يجرى على ألسنة شخصيات»...

- «لكن الروم يا أخى لهم سلطان واحد وبيت مال واحد وسلاح فظيع ونحن مشتتون متنافرون، فكل قبيلة منا تجاهد الروم، تتمنى أن ينهزموا بعد أن يبيدوا قبيلة أخرى معادية لها. ولدينا قادة موهوبون كا(بن الحامد الرشيدي)، ولكننا لانتفق» [٢٣]. وقد يتعلق الامر بإبراز آراء نشأت وراجت فى فترة معينة نظرا لظروف معينة:

- «يقال إن هتلر سيغلب الجميع، ويقسم الدنيا إلى دولتين: دولة للالمان ودولة للعرب».

- «لكن فرنسا تذكرنا بمثل الرجل الذي يقول: الناس يغلبونني وأنا أغلب ربة بيتي» [٢٤]. فهذه الآراء راجت إبان الحرب العالمية الثانية بسبب دعاية النازيين فانتشرت في كافة البلاد العربية. والكاتب يسعى إلى تعدد الاصوات، وإبعاد الراوي عن فرض وجهة نظره. فحمادي ابن الزبير، وهو من بقايا المجاهدين الاولين، لم يتحرر من السجن إلا مع بدء الحركة الوطنية نشاطها من جديد في الخمسينات بطرق مختلفة عما كان عند جيله، لذلك يقول: «... هؤلاء حركة الشباب ويسمون [جنس] أكثرهم تعلموا اللغة الفرنسية، أو من عائلات غنية، وأنا شخصيا لاأرتاح لسلوكهم، يقولون انهم ضد الفرنسيين والاستعمار، كما يقولون ان عادات آبائنا أيضا استعمارية - لو كانوا ضد الفرنسيين لما لبسوا لباسهم»... [٢٥] ولذلك لايرى غضاضة في الوشاية بهم لدى السلطات، إنه يرفض الفكر الجديد، وإن قبل الجانب المادي من الحضارة الجديدة المتمثلة في السيارات أو حمير الحديد كما كان يسميها...

ويلخص الراوي موقف السلطة التي نصبها الفرنسيون إبان تصفية الاستعمار وموقف المعارضة الوطنية منها في حوار يجرى بين متعاطف مع هؤلاء ومتعاطف مع أولئك.

- «إن من يتصور استقلالا حقيقيا لموريتانيا بغير قيادة حزب النهضة والشباب الوطنيين ورجال الدين النزهاء كمن يحاول جمع النجوم في يده...».

- «هذا هو عين الكذب والتدجيل، إن حزب التجمع الموريتاني الذي أخذ الاستقلال الداخلي من فرنسا، ويبني حالا عاصمة جميلة.. هو وحده الوطني وما سواه عملاء للخارج...» [٢٦].

هذا هو رأي المنتمين إلى الطرفين المتصارعين إبان الاستقلال: حزب التجمع الذي بيده السلطة، وتباركه الدولة الفرنسية، والمعارضة الوطنية المتهمة بالولاء للمغرب، وبعد أن تحقق مطلب إعلان الاستقلال أصبحت القضية ذات أبعاد أخرى، ويورد الكاتب الاشكال على ألسنة طلاب في معهد التكوين المهني التابع لشركة استخراج معادن الحديد ذات رأس المال المختلط:

- « لقد منحونا الاستقلال، وبنوا لأنفسهم دولة الحديد في أرضنا - كما يقول طلابنا العائدون من الخارج».

- «هذا كلام سخيف يكرره أيضا معلمو اللغة العربية المتخلفون والمتوحشون [...] يعارضون الحكومة ويشهرون بها متجاهلين أنها هي التي خلقتهم. كانوا رعاة. وليسوا مثل زملائهم المتفرنسين أصحاب الذوق والذكاء وروح المدنية»...

- «من الغريب ألا تحس خجلا من كلماتك هذه التي ليست أكثر من اسطوانة استعمارية قديمة»... [٢٧] ولئن خرج الاستعمار بشكله التقليدي فقد دخل بشكله الجديد، وإذا كان قد سلم السلطة ظاهريا لوطنيين فإنه مازال يرى لنفسه الحق ولايرى للوطني أي حق. لذلك فلاعجب أن نسمع من أحد الفنيين الفرنسيين وهو يعلق على مطالب عمال الشركة بزيادة الاجور:

- هؤلاء الرعاة الحقيرون شبعوا وارتووا حتى دارت رؤوسهم بالخيال والاهام. نظموا الاضرابات ورفعوا عرائض المطالب النقابية، وكأنهم مولودون في أوربا وأمريكا» [٢٨].

ويورد الكاتب - على لسان محاضر مايتحدث في اجتماع سري في قرية نائية بحضو[سميدع] زعيم المعارضة في نهاية الستينات، وهو التنظيم الذي تشكل من الطلاب والمعلمين ١٩٦٨ تصور هذه الحركة الناشئة لمنزلتها في حركة التحرر الوطنية عبر حلقاتها... إن الخاصية الاخرى التي نحن بصددها، أو بصدد توعية الجماهير للقيام بها، بعبارة أصح، فهي [كذا] ان حركتنا تختلف جذريا عن حركات المجاهدين والحرموين والشباب والنهضيين من حيث الفكر والتنظيم، وأساليب العمل والبرنامج السياسي المطلوب تنفيذه. وهذه أول حركة تقدمية يمكن أن تتحد فيها مختلف الفئات المضطهدة من مختلف القوميات الموريتانية لتحقيق المجتمع الوطني أولا ثم الديمقراطي ثانيا»... [٢٩].

والخاصية الاهم التي أبرز الكاتب للحركة الجديدة هي قابليتها لكافة القوميات أي للعرب والزنوج معا بحيث تعتمد

الاستقلال، فالاولون كانوا زعماء القبائل العربية ذات الارتباط التقليدي بالمغرب. وحركة الشباب كانت من نخبة مدارس أبناء الرؤساء والنهضويون كانوا ذوى نزعة قومية عربية خاصة، وفى المجتمع غير العرب.

أما الذين تتحدث الشخصية باسمهم، وأمام زعيمهم، فيمتازون حسب رأيهم بالوطنية والديمقراطية. وهكذا كانوا يطلقون على أنفسهم قبل أن يحولوا إسمهم سنة ١٩٧٣ إلى [حزب الكادحين] عندما تبنوا الشعارات الماركسية. وليس من باب الصدفة، إذن، أن يكونوا، الوحيدين الذين يؤوون بطل القصة، ذلك العبد المتشرد. غير أنه وإن كان زمن الحكاية ينتهى سنة ١٩٧١ مباشرة عندما بدأت هذه الحركة الجديدة مرحلة المواجهة مع السلطة فى مهرجان ٥ يناير كما تقول الرواية. [٣٠]. فإن زمن الخطاب متأخر بعقد من الزمن عن ذلك، وعن اندماج الحركة فى الحزب سنة ١٩٧٥ وعن انقساماتها سنة ١٩٧٨ عندما حل الحزب، لذلك نجد البطل يموت وهو يكرر نبوءة بمصير الحركة:

- «هل سينجح أبنائى فى القضاء على العذاب؟ إنهم يحبون معذبى الارض ولكنهم [يبحثون عن الحقيقة بالخلافات]. فسر لى [بوعمامه] المثل القائل: [إذا ازدحمت العقول خرج الصواب]، ولكن إلى أي حد تفيد الخلافات» [٣١].

إن الرواية تسعى إلى التاريخ للحركة الوطنية، عبر أجيالها، وإنصاف كل جيل منها دون أن تعطيه ماليس له. ولئن بدت متعاطفة معها فى مرحلتها الاخيرة أكثر فإن ذلك أمر طبيعي في عمل غايته التاريخ لهذه الحركة والدفاع عنها..

ويمكن اسقاط مراحل حياة البطل على مراحل حياة المجتمع في هذه الفترة فلقد كان المجتمع في نهاية القرن التاسع عشر يعيش حياة «السيبة»: يظلم بعضه بعضا ويستعبد بعضه البعض، وبمجيء الاستعمار تحرر تدريجيا من انحراف السيبة ليدخل سجن الاستعمار حتى نهاية الخمسينيات ومنذئذ بدأ يتحرر تدريجيا مرورا بفترة الحكم الذاتي وبدأت فترة البحث عن الهوية الوطنية بين الشمال والجنوب.

وهي الفترة التي جاب فيها البطل ما بين السنغال والمغرب والجزائر بحثا عن الانتماء واخيرا عثر على هوية مهما كانت مزورة - فاستقر قراره بين [الزويرات] و[نواذيبو] و[نواكشوط]. فى نفس الفترة التى بدأت فيها البلاد تنتمى لجامعة الدول العربية والوحدة الافريقية قبل أن تدخل فى صراع الصحراء الغربية. وهي الفترة التى مات فيها البطل يردد «إلى أي حد تفيد الخلافات»؟! وهذه الفترة هي التى بدأ الشعب فيها يتجاوز مرحلة الالم إلى مرحلة وعي الذات والاحساس بالمأساة، وهي نفسها التى وعى فيها البطل مأساته:

- «سألنى أحدهم هل أفهم الفرق بين الحرية الشخصية والحرية الاجتماعية؟ فأجبته ان [سميدع] قال لى فى إحدى سهراتى معه «إننى لما كنت راعيا مملوكا كنت محروما من الاولى، وبعد خروجى من السجن وتسخير القاعدة الفرنسية كانت حاجتى إلى الثانية هي مشكلتى أنذاك»... [٣٢]. ومن هنا نجد البطل يعلق على فعل ذلك الشخص الذى حرر عبده واستثنى ماله فاستولى عليه لنفسه: «... إن من حرر وحرم من ماله ورزقه كمن لم يحرر»... [٣٣].

***

وقد وردت رواية [القبر المجهول] كسابقتها على لسان الراوي وبضمير الغائب يتخللها بعض التعاليق النادرة بضمير المتكلم كما فى «فى الزمن الموريتاني القديم جدا بالنظر إلى مدى اختلاف ظروف حياة أهله عن عادات، وظروف حياتنا نحن أبناء اليوم، والقريب جدا بالنظر إلى درجة ابتعاده فى الماضى»... [٣٤]. فهذا تعليق نادر فى الرواية وتدخل مباشر من الراوي ولكننا قد نجد أنماطا من التعليق غيره ليست فيها قرينة ضمير المتكلم، ولكنها حسب قرينة السياق تمثل رأي الراوي: «ومرت تسعة شهور ثقيلة مثل ليالى الداء على المريض أو كليالى آخر شهر الصيام». [٣٥]. والراوي عارف بشخصياته: ظاهرها وباطنها على حد سواء. يعرف ماضيها ودوافعها النفسية، فهو إذن أعرف من الشخصية بنفسها، يعلم ما جعل العتيق يتلكأ فى قبول انتظار ديلول عند العرافة المصروعة، ويعرف نوازع طالبنا وداخلية العرافة، وهي تتنحنح لتدلي بنبوءتها بشأن المطر، كما يعرف أفكار سلامي، وهو يجلس لدى الامير جابر. ويعرف نوازع الزهرة، وهي

ترت من المجتمع . وقد عنونت القصه بعنوانين احدهما [القبر المجهول] والثانى [الاصول] تجمع بينهما او التخييرية ، وسبق أن لاحظنا أن القبر المجهول قصة فى قصة ، وأن بطلتها ميمونة وشخصيتها الثانية هي سلامى وأن باقى الشخصيات كديلول وطالبنا والزهرة ومن ورائها شكرود ، ثم شكار وسناد وغيرهم كلها شخصيات ترد فى أدوار ثانوية باهتة .

وقد لاحظنا أن الاصول هي القصة الرئيسية . وبطلها ديلول ، وشخصياتها الثانوية رئيس أولاد اسويلم وحاشيته ، ورئيس أولاد اعميرة وحاشيته ، ورئيس اولاد عبد الرحمن وجماعته ، والنمادي ، وسلامي وميمونه . الخ . . . ولعل [القبر المجهول] نفسه رمز «الاصول» المجهولة ، فقد ضخم الخيال صورته ـ كما ضخم صورتها ـ فأصبح البعض يراه قبر نبي ـ كما يرى الكثيرون أنفسهم شرفاء ـ أو قبر ولي ـ كما يرى الكثيرون أنفسهم أبناء ولي ـ أو قبر أحد مسلمي الجان . الخ . . وأصبح مزارا مهيبا تجلب له الصدقات وتلتمس عنده المغفرة والخير العميم ـ كما هو شأن الكثيرين . وهو لا يعدو أن يكون قبر طفل لم يعش إلا ساعات جر على أمه التشرد والتوحش كما أن الكثيرين ممن تحاك حولهم القصص ليسوا إلا أناسا عاديين من سلالة قبائل الصحراء القديمة .

وليس غريبا بعد هذا أن نرى والد الطفل الدفين يعود وهو يكرر : «سبحان خالق الاصول ومغيرها سبحان من قسم الاقدار والاقسام وحددها» . وينشد :

«ومن صحب الايام أنأين داره وأدنت له من ليس بالمتداني» «ط» [٣٦] .

وهو الذى جاء يزور القبر ، لما حكي له عنه من قصص ، ملتمسا المغفرة والخير العميم ، وهو يسأل ربه ببركته أن يشفي شقه المشلول . فإذا به يلتقى عنده بميمونه التى تحولت [نمداوية] تعدو وراء كلبها ، بعد أن كان عهده بها وكل همها احتساء جفان الحليب إثر الجفان ، فتخبره بحقيقة القبر ، وبأنها هي أصبحت زوجة لشكار فارس أولاد اسويلم الذى أصبح بدوره [نمداويا] وتخلى عن أخواته وبنات عمه لتصبح أخته زوجة لسلامى نفسه الذى كان زوجا لميمونة فى لحظة ما . تلك الاخت التى كانت مرشحة لتكون زوجة للامير [شكرود] ففضل عليها [الزهرة] أخت ميمونة ليموت عنها ويتزوجها ديلول الذى كان أحد أتباعه فأصبح الامير من بعده . وفى هذا التشابك فى الزواج وما يخضع له من صدف لاتخطر على بال ما يلقي ضوءا آخر على غموض الاصول وزيف كل تصور عنها . [فالقبر المجهول] إذن هو هذه الاصول المجهولة «والمتغيرة» ـ «كالاسماء المتغيرة» ـ على مستوى الافراد كما تجلى فى تحولات هذه الزوجات وعلى مستوى الجماعات كما تعكسه الفقرة المركزة التى ترد قبيل نهاية الرواية : «ورجع جابر ولد الدلال ـ كما يدعى منذ سنة مضت ـ إلى أهله قادما من جهة [أكان] حيث تأكد أن أولاد اعميرة قد تابوا توبة لارجعة فيها ، والتحقوا بطلبتهم كما هي حالة أولاد اسويلم الان مع أولاد عبد الرحمن : «ومر الرئيس الجديد [بزناكه] عربان [أكان] المهزومين وجمع الغرامات وصادر بنادق الصيد ولم تسلم من ذلك أسر من أولاد اعميرة اثرت الالتحاق [بزناكه] على دخول حياة الزوايا ، والغريب أنه جنح إلى منطقة [الخط] لزيارة حي صغير ينتمي إلى أولاد عبد الرحمن ، إلا أن عهده بالتعلم قد تقادم فأغلظ عليهم فى المطالب ، وعاملم كما كان هو يعامل فى سابق حياته من طرف الحسانيين المتغلبين» . . . [٣٧] . فقد قلب بركان [البركيطة] الذى لايعرف الاستقرار عربان [أولاد اعميرة] إما إلى [زوايا] مثلما فعل [بأولاد اسويلم] ، وإما إلى [ازناكه] غارمين ، كما فعل ببعض أولاد عبد الرحمن وحول أولاد احميدان الذين كانوا [ازناكه] غارمين إلى أمراء يسيطرون على الجميع ، بل وحول زوجة شكرود إلى زوجة لديلول ، مما جعل زوجة ديلول تصاب بالهستيريا فتربط بسلسلة إلى جذع شجرة كما كانوا يفعلون [بالمجذوب بن طالبنا] . وكما تنقلت النساء بين شكرود وديلول وبين سلامى وشكار الخ . ينتقل المغنون كالبضاعة من أيدى أولاد اسويلم الذين كانوا يغنون لهم النشيد الحماسي «نحن أبناء الملوك» [٣٨] ، إلى أيدى أولاد اعميره فأصبحوا يرددون لهم نفس النشيد [٣٩] . ثم إلى يد ديلول ، فأصبحوا يرددونه له كما فعلوا بسابقيه [٤٠] . وهذا البركان هو الذى دفع بأهل سلامى إلى الجنوب عندما نفدت مواشيهم فاستقروا فى الجنوب وعوضوا مواشيهم بالانشغ ، بالعلم . كما فعل

وفيها حوت ميمونة وشعار إلى [illegible]
اللبن دهرا طويلا [زاوية] كسلى، وبعد أن عايش هو صهوة الجواد وعناق البندقية وخوض المعارك. [حسانيا] فارسا مغوارا، تحول كذلك معتوق ـ الذى كان عبدا لزعيم [أولاد اعميرة] فأعتقه وتعلم الفروسية وخاض معه المعارك، وقتل له شكرود غدرا هو وصاحبه الذى فر معه إلى شخصين أعزلين يدعيان أنهما شريفان ويلتمسان «الهدية» [٤١]. واستعاضا السبحة بدل البندقية: «... رأينا فى حوض النهر [شمامه] رجلين مع الفلاحين هناك يدعون أحدهما الشريف الابيض وصاحبه [الشريف الاكحل]. وليسا سوى فارس أولاد اعميرة الاسود: [معتوق ولد بلال]. وواحد معه من أسياده [...] وكانت مع كل واحد منهما سبحة كبيرة، ولا يفتر عن تدوير حباتها متظاهرا بأنه يذكر ربه». [٤٢].

وتحمل القصة إلى جانب هذه الرؤية الاساسية «للاصول» جملة من الرؤى الثانوية تعكس وتعرى البنى الايديولوجية للشخصيات النماذج. ففئة الزوايا من منظور [العربان] تبرز من خلال حوار يجرى على ألسنة أصحاب شكرود الذين يرافقونه فالزوايا يفسرون كل انحراف يقوم به أحدهم تفسيرا يخدم مصلحتهم فى احترام الاخرين لهم والخوف من سلطتهم الروحية:

ـ «هؤلاء الزوايا لايتركون أحدا يضيع تماما [!] [٤٣] فإذا كان أحدهم أحمق أو مجنونا ـ سموه مجذوبا أو وليا مستترا عن أعين الناس. [٤٤]، ـ وإذا كان شحيحا بخيلا [...؟..] ـ سموه رشيدا مدبرا. ـ وماذا سيقولون لو أن أحدهم كان سخيا؟ ـ مبذر.. سفيه! ـ مساكين أولئك الطلبة السذج [٤٥] فهم، حسب رأي بنى حسان فيهم، يتخذون الحمق والجبن والبخل فلسفة لهم يبررونها بأنها «جذب» وشطحات صوفية للاول. وتعقل بالنسبة للثانى، وحسن تدبير بالنسبة للثالث. وليس رأي الفئة الثانية [ازناكه] فيهم بأفضل من رأي بنى حسان فيهم. فديلول يقول: «صحيح فعلا ما يقال عن أبناء قبائل الزوايا من أنهم أهل تحاقد فيما بينهم وكراهية للاخرين يعلمون غيرهم الدين والعلم ويملؤون الدنيا مواعظ، ورغم ذلك لا يرق قلب هذا الزاوي الى مثل هذه المخلوقة، وفي حالة كحالتها»... [٤٦]. والصورة التي يقدم بها الراوي هذه الفئة تسلك نفس المسلك فالعرافة، وهي أحد نماذجهم تعيش صراعا غير معلن مع [أولاد عبد الرحمن] كما يتضح من النص السابق على لسان ديلول. ويقدمها الراوي على هذا النحو: وجلست المرأة [...] حريصة بقدرما يساعدها الحظ على أن تكون إجابتها مقنعة.. وكلها أمل أن يزداد حسن ظن القوم بها، مع أنهم فى المدة الاخيرة لايخلو بعض أفرادهم من السخرية منها والتندر بأقوالها. وربما نشأ ذلك بتحريض من ضيوف [أولاد الرحمن].. [٤٧]. وهي تؤمن بضرب الحصى [لكزانه] وتدعى أنها تقرأ به المغيبات: «... رأيت ريحا دكناء ورديف شر على مركوب أسود فى ليل حالك الظلام». [٤٨]. وعندما يقضون عليها حكاية الغار الذى يحفره [أولاد عبد الرحمن] ثم يعيدون إليه مانزعوا منه من تربة، وعندما تزيد على ملئه يستدلون على كثرة المطر في الموسم بذلك، تقول هي ان «فكرته غير معقولة».. [٤٩]. وتفسر ظاهرة المطر تفسير اسطوريا موجها لاثبات ان لها جدا من اولياء الله اصحاب الخوارق. «.. اعلموا أن الغيوم الصيفية الخفيفة [آمريغ] تسير شرقا إلى أن تصل بحول الله وقوته بحر النيل في مصر، فتشرب منه، ويسوقها الملائكة بعد ذلك إلى حيث يشاء لها أن تمطر.. [...] إن جدى الرابع كان رحمه الله وليا من أولياء الله أصحاب الخوارق، وحج بيت الله الحرام، مرة وفى طريق عودته رأى مزنا تشرب من النيل وسأل إحداها عن اتجاهها فأجابته انها ذاهبة إلى أرض القبلة قريبا من نهر السنغال، وركبها وسارت به حتى نزل منها، مع المطر بين حقول اهلهم ومواشيهم» [٥٠]. وبهذا النمط من الاساطير تحاول امتلاك قلوب جماعة [آزناكه] وتستغل لذلك القبر المجهول الذي تزعم انه «قبر صالح من الانس أو الجان المسلمين أو لأحد الانبياء القديمين» [٥١]. وتحذر الرعاة من الاقتراب من الحيوانات التي توجد قربه زاعمة أنها «بلا ريب أرواح مسلمي الجان تجسدت فى شكل حيوانات برية وتأتى للتبرك من ذلك القبر المبارك» [٥٢] وتحكى عليهم للتهويل قصة عوج بن عناق الذى «أبوه من الانس وأمه من الجان» [٥٣] ومثله قصة نزيل [تندرشين] [٥٤]. الذى هو «واحد من مسلمى الجان قاتل مع محمد ﷺ فى غزوة بدر وجرح فيها وطار إلى الغرب حتى مات فى المكان المذكور» [٥٥]. وغير هذا من الاساطير التى تظل

الراوي فيهم على جوانب سلبية أخرى فهذا طالبنا يبعث مع ابنه بصرة من التراب لازناكه يتبركون بها. «وذكر الرجل صر من تراب فى طرف ردائه كان قد أرسلها معه والده [طالبنا ولد العتيق] إلى ديلول وهي مهمة لأنها منفوث فيها حجاب لدفع كل الاخطار والمخاوف ومع الصرة وصية أن تذرذر ترابها حول الحي كل ليلة ليحفظ الله أبناءه من كل مكروه». . [٥٦]. وتبقى صورتهم من خلال سلامي صورة متميزة فهو رجل تقي كرس حياته للعلم والعبادة وتكبد فى ذلك المشاق، ولكنه مع ذلك ضعيف التصميم ينقاد لرأي غيره دون تقدير للعواقب، ويستسلم للقدر دون مقاومة، ثم هو من بعد مزواج لايشبع من الزوجات المعلنة والمستورة.

أما فئة العربان فيبرزون من خلال القصة فى صورتين اثنتين: صورة التضحية والبطولة: «نحن عرب حسانيون وما هابنا الناس إلا لأننا نفضل شرفنا على حياتنا». . [٥٧]. وأكبر مثال على ذلك ردة فعل زوج ببكر عندما نعي لها خامس أولادها الذين هلكوا فى المعركة حيث قالت: «أحمدك ربى على كونه لم يمت موت الحمير مصطجعا في خيمة أهله واضعا رأسه على الوسادة فيكون جيفة». . [٥٨]. أما الصورة الثانية فتبرز من خلال رأي غيرهم فيهم فجماعة الزوايا منهم من يطعن فى إسلامهم ويرى أن كل بنى حسان سيئون، ظلمة، وشرسو الطباع» [٥٩]، «كلهم بلا عدل نهابون، جاهليون» [٦٠]. أما عند ديلول «فكلهم أشرار وخيرهم من مات ورعت الابل فوق ضريحه» [٦١]. «ومانزلوا أرضا إلا صبغوها بدماء الابرياء» [٦٢]. وهم مع ذلك حسب ما يقوله الراوى خاضعون لسلوك حربي عالى الاخلاق فلا يمسون العزل والنساء والاطفال والشيوخ، ولايغدرون، ويلتزمون بنصرة المظلوم. ولايجزعون لموت رجالهم في المعارك. . ويحترمون الزوا الذين يمثلون المعرفة. ولذلك لما غدر [معتوق] [بشكرود] صرخ أصحاب شكرود «أنذال لسيوا عربا ولا أهل شها [٦٣]. ويعلق الراوي على هجوم ديلول وأصحابه الغادر على أولاد اعميرة وهم نيام فيقول: «واندفعوا إلى نوع مر الهجوم يعتبر غدرا وخسيسة وعيبا لايمحى فى أعراف عربان الصحراء، وعاداتهم القتالية المحاطة بهالة من القواعد والشعارات الفروسية التى لايشذ عنها إلا الساقطون». . [٦٤].

أما [ازناكه] فجهال منقادون لتصديق كل ما يصدر عن [الزوايا] محسنو الظن بهم خاضعون لنزوات بنى حـ طيعون بإسداء المعروف إلى غيرهم، ومع ذلك فلا يخلون من ذكاء وفطنة أكسبتهم إياهما التجربة وصراع الحياة، فى انتباه ديلول، من حركة الرياح، إلى اقتراب موعد المطر، وهم بخلاف الزوايا متحابون، وإن كانت عبارات الحـ نابية كما يقول الراوي: «تشاتم راعيان من رجال الحي بوقاحة مألوفة بينهما وهما يتجادلان، وهذا لايناقض روح المو بل ان العبارات البذيئة والكلمات النابية تحتد بين المتكلمين فى هذا الحي كلما كانت روح الصداقة بينهم أعمق، و التحفظ أبعد. وتتخلل حوارهما ضحكات مجعجعة تطلقها محدودية همومهما النفسية ومرحهما». . [٦٥]. غير أن لهـ أخرى، فهم أيضا شرسون يهاجمون النمادى ويقتلونهم ظلما، ويسلبونهم ما لديهم من اللحوم المجففة. وهذا ديلول يهم بقتل والد زوجته العجوز عند ما ينصحه بعدم الاقدام على مهاجمة العربان، ثم يقتله عندما يراه يسوق بعض مواشيه ليواسى بها المنكوبين فى المعركة بين حي العربان، ويطلق زوجته التى قتل أباها. وعندما تجن يربطها بسلسلة فى جذع شجرة بين الخيام ويقتل أسرى [أولاد اسويلم] وبهم بقتل أطفالهم، لولا طمعه فى أن ينال الزهرة زوجة له.

أما النمادي فيبرزهم الراوي مجتمعا فطريا مسالما يعيش على الطبيعة بعيدا عن شرور المجتمع «لو رشقناهم بالنشاب والمزاريق أو استعدينا ضدهم الكلاب لمزقناهم شر ممزق ولكننا لانتشد غير السلام والحرية في بلاد الله الوساعة، لا نريد حربا ولا مشاكل تقوم بيننا، وأي كائن من كان [. . .] نحن أهل سلام نبحث عن الحرية فى الفيافي والاحقاف النائية بعيدا من بنى آدم وتسلطهم وأحقادهم وظلمهم المتأصل فى نفوسهم». . [٦٦].

من الشخصيات السلبية التى ترتبط بها الشخصية الرئيسية: فعلى قمة هرم الشخصيات الايجابية يأتى أحمد وعناصر مدينته الفاضلة ثم الام والاخت. وعلى قمة هرم الشخصيات السلبية تأتى الغالية والزين ورجال الاعمال. وتأتى التقية وجماعتها فى منزلة بين المنزلتين.

ويعكس هذان النمطان نموذجين حياتيين: نمط الحياة القروية التقليدية المبنية على الروابط الاجتماعية القائمة على القناعة والتآخى وحسن الجوار... ونمط حياة المدينة المبنية على أساس المادة والانانية والجشع، والخيانة... يقدم الكاتب فى البداية موقف القاسم من أمه حيث يرفض البقاء معها ولو لحظة، ويرفض معروفها المبذول لأن بيتها «وسخ» ويغادرها مهددا بعدم العودة إليها أبدا لأنها لامته على هجرانه لها سنين عديدة، وعلى عدم مساعدتها فى تحسين ظروفها، وعلى كونه لم يأتها مرة واحدة بأطفاله، وعلى أنه يترك زوجته تعيش مع رجل غيره فى الخارج... وهو يرفض مطلبها بأن يوصل بسيارته جارتها العجوز إلى ضاحية القرية قائلا: إن سيارته لم تخلق لحمل العجائز. ويسلط الراوي الضوء عليه وقد خرج من عندها مباشرة إلى التقية التى ينفق عليها المال بدون حساب ويحمل لها، بطيب نفس، العجوز ذاتها التى رفض حملها لأمه. ولايكتفى الراوي بهذا فقط ولا يبدء المشهد بعبارة « الزيارة المزعومة» [٦٧]. وإنما يحيلنا إلى نموذج [فلان] الذى بنى عمارة لأهله، وأصبح يقضى عندهم موسم التمور، وإلى نموذج آخر ترويه - بصورة عفوية [دوامة] للقاسم عن ابنها الضابط الذى يقضى عندها عطلة كاملة رافضا خلالها كل الدعوات، لأنه يريد أن يبقى معها طيلة الوقت. ولايكتفى بهذا بل انه طلق زوجته عندما رفضت الاقامة مع والديه. وهو يأتيهما دائما بابنته الوحيدة. فهناك إذن إدانة صريحة لموقف القاسم ازاء أهله. وهناك إدانة لسلوكه مع زوجته التى سيكيل لها الصفات الذميمة على امتداد القصة فهي مادية جشعة متبرجة.. لا عهد لها ولاذمة بعكس الام الوفية الطيبة القنوع المخلصة.

وتعرى القصة خلاعة البطل ومساكنته غير الشرعية للتقية ورقة دينة وتبذيره الاموال فى القمار وفى رغبات الغالية التى تساكن غيره وهي زوجته الشرعية، وفى رغبات التقية التى يساكنها وليست زوجته. ومع كل هذا يضن عن أمه بأي شيء، بل ويرفض معروفها. ثم تتحدد الرؤية شيئا فشيئا، لافى القاسم وحده من خلال علاقته بأسرته وبالنساء. وإنما من خلال نموذجين [القاسم] أحدهما، وثانيهما هو[أحمد] صاحب مشروع الوادى. وهما فى نهاية المطاف نمطان حياتيان: نمط الحياة التى تجرى فى المدينة وعلاقتها المبنية على الدينار والدرهم ونمط حياة الريف المبنية على العلائق الاجتماعية والروابط العاطفية. فنموذج القاسم إذن نموذج المدينة. ونموذج أحمد نموذج القرية أو الريف.

أحمد يرى «أنه من السفه أن نقبر بيئة سائدة وظروفها الاجتماعية لاتزال مسيطرة فى ذهنيتها [كذا!] ونبقى مكتوفى النشاط نعيش من نفايات نظم أخرى ولو بلغت ما بلغت»... [٦٨]. فلكل مجتمع إذن بيئته وزمانه اللذان يختلفان عن بيئة وزمان غيره ولايمكن للمرء أن يتجاهلهما وينتقل إلى بيئة الاخرين وزمانهم، لذلك أسس نظامه القائم على سد الاحتياجات الضرورية ذاتيا، والاستغناء عن الكماليات، فقيمة نظامه - كما يقول - هي «أن نعيش إمكانياتنا بدلا من التفرج على إمكانيات الاخرين...» [٦٩]. وهو يرد على القاسم، الذى اتهمه بأنه أقعد أهل الوادى عن الالتحاق بركب المدينة قائلا: «إن ذلك أفضل من أن يهجروا أكواخهم ليجلسوا إلى ظل قصور أهل المدينة» [٧٠]. وعندما ينتقد القاسم أهل الريف بالاتكالية والايمان بالخرافة ويرى أن «وضعيتهم الاجتماعية يجب أن يقضى عليها..» [٧١] ليعيش الناس من ثمرة ما توصلت إليه البشرية من نظم ووسائل يرد عليه أحمد: «إن أهل الريف مجموعة لها خصائصها وصورها التى تميزها، إن لهم شرفا ونظما وعادات يجب الاحتفاظ بها.. إنى لا أخالفك فى أن التطور فى الوسائل، وتعميم المعرفة، وتعميقها مدفان لكل مجموعة داخل مكانها وفى زمنها. إلا أن ذلك يجب أن يحصل بطريقة التطور لابالمسخ والقهر الحضاري [٧٢]. فأحمد إذن يتشبث ببيئته الاجتماعية والطبيعية، ويريد أن تتطور تطورا ذاتيا، لاتطورا مقتبسا من خارجها وهو جزء تجاوزها

والقلق الوجودى. «لاشك فى أن عائشى [كذا!] المدينة المحض يعانون قلقا بسبب تعدد مصادر الخوف: [الامراض، الحوادث، الحروب، والفقر الخ..] وأمامهم طريقان: إما الحد من تلك المصادر [وهو شيء شبه مستحيل]، وإما توحيدها [...]: إن مصدر الخوف والطمع والمس بالضر وكشفه هو الله الذى لاراد لما يشاء». [٧٣]. فأحمد تكون تكوينا دينيا، فهو خريج فاس والقاهرة ورغم انه حقوقي ولم يتخرج من القرويين ولا الازهر فإن منزلة فاس القرويين والقاهرة الازهرية لايمكن أن تذهب سدى، فالحل الذى قدم لقلق سكان المدينة واعتكافه فى المسجد الحرام ردحا من الزمن، ومقالاته التى كان ينشر بعنوان «نعم للعدالة الاسلامية وتبا للاشتراكية المادية» [٧٤]، تدل على تكوينه الديني وتوجهه الايديولوجي خصوصا إذا ربطنا هذا بفترته الزمنية فى عهد ازدهار الافكار الاشتراكية فى مصر والشرق الاوسط، وتشدد الاتجاهات الدينية المناهضة لها فى المنطقة. ولكن توجهه الايديولوجي الاسلامي ليس من الاتجاهات الثورية، فهو محافظ يأسف «لموجة الخروج الفوضوية فى بلادنا عن مذهب مالك. كما لاحظته فى المدينة..» [٧٥]. وهو رغم ثقافته الكونية يحذر من الثقافة الاجنبية «على المثقف ثقافة أجنبية أن يكون حذرا [...] إن الثقافات الاجنبية تصهر الانسان فى معمل تحويل لاعادة سبكه من مواد مجتمع آخر وبيئة أخرى، بعد أن سحب منه عناصر أصالته وأواصر انتمائه، فالعاقل من أخذ منها ما يفيد مجتمعه، ويتجاوب مع بيئته، فيضيفه إلى ألوان حضارته على أن تظل هذه الاخيرة مسيطرة وأن لايخرج المزج عن إطار الخريطة الثقافية التى ينتمى إليها».. [٧٦]. بل انه يشك فى قيمة الفكر والثقافة التى يحمل وهو يستعملها لأن الناس مقتنعون بها: «إنها أفكار أحفظها عن مطالعة كتب الاخرين، وأستدل بها غالبا حرفا بحرف دون أن أعزيها [كذا!] إلى مصادرها. أرجع إليها مادامت قد قبلت بإصابتها»... [٧٧]. فأحمد إذن فى المجال الاقتصادي يفضل القناعة والتقشف والانعزال عن الحضارة المادية وفى المجال الفكري يريد نوعا من التطور الذاتي، وهو يقاوم المدنية الحديثة رغم عدم ثقته فى النتيجة: «إننا نقاوم تيارا لايقهر، ألا وهو داعى المدنية العمياء، وأشك فى من ستكون له الغلبة، إلا أن الشك عندى أحلى من مسكر الاستسلام».. [٧٨].

والقاسم شاب تخرج من جامعة برشلونه بشهادة عليا فى الاقتصاد وانغمس فى حياة المدينة، وتزوجها ممثلة فى الغالية بنت نواكشوط. وطلق الريف وعاداته ومعتقداته. مع أن بنفسه نوعا من الحنين الداخلي إليه، هو الذى دفعه إلى العودة إلى القرية وإلى الوادى، وإلى الاهتمام البالغ بأخبار الوادي ونظام أحمد فيه. مع أنه ظل مع ذلك مصرا على تعلقه بالمدينة والغالية مبالغا فى التبذير والانفاق على شهواته بالرغم من قوله عندما عاد إلى الكوخ من آخر حوار له مع أحمد: «أقنعنى هو بإصابة اختياره وصدق تأملاته»... [٧٩]. بل انه اقتنع بأن حياة سكان الوادي هي الحياة النقية التى ينبغى أن يحافظ عليها: «هذه هي الحياة»، قالها في قرارة نفسه، «يجب ألا تزول وان يحافظ عليها من مسخ المدنية المصطنعة» [٨٠]. ولكنه يبرر عدم العودة إليها مباشرة: «إنى تعودت على ظروف توفر لي جميع وسائل الحياة، علي واجبات ازاء المجتمع الذى أعيش فيه وتختلف فى نوعيتها وشموليتها عن نظام أسرة الوادى» [٨١].

ولكن هذا الحنين إلى العودة والانفصال عن المدنية قد استيقظ وتأكد عندما دخل القاسم السجن وصودرت أملاكه وغدر به أصدقاؤه وخانته زوجته، فأقلع عن التدخين، ذلك المخدر الذى ظل سكران به ردحا من الزمن. وعاد إلى ذاته وطلق الغالية: المدنية المادية «مستعد لاطلاق سراحك إلى حيث تشاء أطماعك المادية» [٨٢]. واقتنع بأن «العلاقات كلها تخضع للنقود» [٨٣]. فى المدينة. و«فى السجن أحس القاسم بالحاجة إلى مرجع [...] فارتضى الاسلام دينا» [٨٤]. وزاد نفوره من المدينة والمادة «فأصبح يبغض المدينة وسكانها ويحتقر المادة وعائدها» [٨٥]. وهكذا فر منها فور خروجه من السجن «إلى مكان يعصمنى من المدنية».. [٨٦]. كما يقول، والتحق بالعجوزين الباقيتين فى الوادى ليعيش معهما إلى الابد.

مات حتى فقدوا الوعي والامل فى الحياة من أي نوع كانت. فهاهو اسماعيل يهيم على وجه «تتعاطاه رؤوس الجبال ولايزال ينفر من الناس» [٨٧]. كان الوادى محط أنظار الفارين من المدينة الحديثة التى تطغى فيها المادة وتضعف الروابط الانسانية ولكن المدنية طالت نبي الوادى فقضت عليه، وخيبت آمال أتباعه فهم بين هالك ومصاب بالخبال. ومع هذا ظل الوادى محط أنظار من لفظتهم المدينة كالقاسم، فالمدنية الحديثة كالليل، لاأحد يفلت من قبضتها، فلقد طارت محاولة أحمد شعاعا بسبب ملقيات هذه المدنية: سيارة متعطلة ملقاة على قارعة الطريق فى فلاة تحركت بطريقة غير منطقية، فعصفت بكل ما بنى أصحاب الوادى عبر سنوات عديدة، بشكل عبثي غير معقول. ولئن بدا الراوي ـ الكاتب الضمني ـ محتجبا وراء الشخصيات يحركها لتقول ما يريد دون أن يتدخل مباشرة، فإن الكاتب الصريح ظهر دون حجاب فى تقديمه للقصة مفتونا بنظام أحمد الوادي: «إلى ذكريات ماضي الاصالة، وصادق الانتماء... أهدى تجربة أحمد الوادى [...] أصالة بناء أسرة أحمد الوادي [...] ريشة أحمد الوادي».. [٨٨]. فتجربة أحمد هي تجربة الاصالة وصادق الانتماء، وهي البناء الاصيل وريشة الفنان الاصيل. وكأن الهروب من المدينة إلى الغابة الذى عرف عند الرومنسيين أصبح عند ابن الصحراء الذى لايعرف الغابة هو الهروب إلى «وادي» النخيل المنعزل فى أعماق الصحراء. وهو هروب يائس مصيره الفشل مسبقا، ولكنه فى نظر أحمد الوادي وأصحابه، ومن بعد القاسم، هو الملجأ الوحيد والطريق السليم. ولايضره بعد ذلك أن يكون الطريق المسدود..

إنها أزمة المثقفين فى الفئة الوسطى المصلوبة على جسر مقطوع بين النموذج الأجنبي المتطور والمتحرك، والنموذج المحلي المتخلف المتهاوى، بدأ يعيها المثقف الموريتاني بعد إحساس المصري بها بأكثر من نصف قرن، والسوداني بأكثر من ربعه. إن أزمة القاسم وصورته الاخرى أحمد، هي بمعنى ما أزمة محسن فى عصفور من الشرق [٨٩]. وإسماعيل فى قنديل أم هاشم [٩٠]. ومصطفى سعيد فى موسم الهجرة إلى الشمال [٩١]. ولئن كان القاسم قد يئس وهرب مستسلما فإن صورته الاخرى أحمد قاومت وبذلت مجهودا كبيرا ولو أنها تعي مسبقا فشلها، ولئن تعددت الاصوات فى القصة فإنها مع ذلك تصب كلها فى رؤية واحدة هي تمجيد نموذج أحمد وضرورته لمن هم فى منزلته، لذلك فإن كافة الشخصيات تقريبا عادت إليه إما بأجسامها وقلوبها كالقاسم والتقية... أو بقلوبها دون أجسامها كالمختار.

* * *

وتقدم الرؤية الفكرية فى رواية [الاسماء المتغيرة] رؤية تاريخية تطورية للمسار التحرري للمجتمع الموريتاني منذ أواخر القرن الماضى، ويسعى الكاتب إلى أن يكون غير مباشر بحيث يتولى الراوي سرد الاحداث ووصف المشاهد، ويكل إلى الشخصيات إصدار الآراء.

وتركز الرواية فى رؤيتها العامة على عنصر التغيير فكل شيء يتحول من الاسماء، إلى الشخصيات، إلى المواقف، إلى الآراء، فعدم الاستقرار هو الظاهرة الابرز. والصراع والسطو والخداع والسذاجة سمات بارزة فى المجتمع والحياة التى ينقل، ولكن لاشيء منها مستقر فكلها سمات تتغير وتتحول وهو يبرز المقاومة الوطنية فى بداية دخول الاستعمار مشتتة تنقصها معرفة العدو والهدف، ولاتملك أيَ منهج محدد.. ثم يبرزها فى المرحلة الثانية، وهي مازالت رؤيتها ناقصة، فقد تحددت هدفها فى الاستقلال، ولكنها لاتعرف أي نوع من الاستقلال، أقبلي أم فئوي أم تعلق بهؤلاء أم ولئك؟، وبالتالى ليس لها منهج ولاخطة.. وهو يبرزها مرة ثالثة وقد وحدت صفوفها وأصبحت ترى الحرية السياسية والاجتماعية، والوحدة الوطنية هدفين أساسيين وتسعى إلى البحث عن المنهج، غير أنها تبالغ فى النقاشات والتنظيرات على حساب العمل المنهجي مما يؤذن بسقوطها هي أيضا.. ومهما كانت النواقص التى أبرز لهذه المرحلة أو تلك فإنه يبرز تطورا عاما نحو الافضل رغم الاخطاء والعثرات. وهذا مايؤ[illegible]

* * *

أما رواية [القبر المجهول] فتقدم رؤية تفسيرية لبنى اجتماعية هي بنى المجتمع الموريتاني التقليدي، أي مجتمع ما قبل الاستقلال بحيث ترصد هذا المجتمع فى لحظة تاريخية معينة وتشرحه فى مخبر البيئة الطبيعية الذى حسبته قادرا على تفسيره. فالتقسيم الثلاثي: [العرب ـ الزوايا ـ الخاضعون] ماهو ـ من هذا المنظور ـ سوى قالب عام. أما ما بداخل هذه القوالب فغير ثابت، فما فى هذا القالب الان قد يكون غدا ما فى القالب الثانى أو بعضه وقد يكون بعد غد ما فى القالب الثالث أو بعضه، فتتمازج الاصول ويختلط حابلها بنابلها. وإلى جانب هذه الرؤية الطبيعية الاتنولوجية ثمة محاولة لتعرية البنية الايديولوجية والعقدية لهذه الفئات التى تميز بعضها عن البعض. وهي البنى التى تساهم فى خلق الوهم والآراء الخاطئة المسبقة.

* * *

وأما فى الرواية الثالثة [أحمد الوادي] فتقوم الرؤية على ثنائية المدينة/ الريف. وتتلخص فى أزمة الطريق المسدود فابن الريف عندما يتثقف ينغمس فى المدينة وينبت من جذوره انبتاتا ولكنه يكتشف فى النهاية أنه ضحى بكل شيء فى سبيل سراب، وأن المدينة التى ظل يجرى وراءها ويحسب أنه داخل فيها ماهي إلا امرأة غدارة تستغل نقوده وتستنزفها، وتكلفه فوق طاقته فتلفظه وحيدا طريدا منبوذا فى سلة مهملاتها التى هي السجون، فينتبه من سباته وقد أصبح ثوبا خلقا غير صالح للاستعمال، ملقى خارج بوابة المدينة الموصدة. فلا يبقى له إلا أن يعود إلى القرية باحثا عما كان ضيع: عن الايمان والاخلاق والعواطف الصادقة، عن ملجأ يعصمه من المدينة: الذئبة التى تأكل أبناءها، ولئن كان طريق القرية أو الواحة المنعزلة أيضا مسدودا لأن آليات المدينة وصناعتها تحاصر القرية، وتخنق أنفاسها، فإنها تبقى ـ عند هذا المنظور ـ الملجأ الوحيد لأن الامل مهما ضعف خير من اليأس القاتل.

ورواية [أحمد الوادي] يائسة من المدينة يأس أحمد والقاسم منها، فهي فى نظرها شر مستطير مطلق. فهي إذن تختلف عن الروايتين السابقتين من حيث الرؤية الايديولوجية، إذ الاولى تاريخية سياسية متفائلة والثانية اجتماعية طبيعية نقدية. بينما هذه الاخيرة تعبر عن أزمة مثقف العالم المتخلف الذى تتضخم فى منظوره الهوة القائمة بين نموذجه الفكري المقتبس من الحضارة الغربية المتقدمة، وواقعه المادي المحلي المتخلف. هو بفكره هناك وبجسمه هنا، فيثور على واقعه أولا ويسعى إلى الانبتات منه عبثا، وإذ يعجز عن ذلك يثور على النموذج الغربي عبثا، ويسعى إلى الانبتات منه دون جدوى لأنه يظل يحاصره حيثما حل. فيظل فى هذا الصراع العبثي، وكأنه لاوسط بين الابيض والاسود، فإما النموذج الغربي كما هو فى بيئته الاصلية الطبيعية وإما النموذج الواقعي المادي كما هو فى بيئته الطبيعية ومحيطه الايديولوجي.

إن رؤية الاولى هي رؤية [سنوات الامل ٧٣ ـ ١٩٧٥] المتفائلة التى تنتقي من المستوى النقاط المضيئة فتركز عليها فتبعث الامل وتستحث العزائم. . ورؤية الرواية الثانية هي رؤية سنوات التصحر والجفاف واليأس ٧٦ ـ ١٩٨٥ التى طرحت أسئلة كبرى حول مصير المجتمع والحياة فى البلاد مع انهيار الوسط الطبيعي وانتشار الهجرة من الريف إلى المدن. ومن البلاد إلى الخارج. أما رؤية الرواية الثالثة فهي رؤية ما بعد الثمانين الخاصة بفئة المثقفين الذين يتأرجحون بين واقع البلاد المتخلف الذى يزداد صعوبة بتفاقم موجة تدهور الوسط الطبيعي وتفاقم التضخم، والديون وانتشار الفساد وانعدام الترشيد، والتكالب على الاستيلاء على الاموال العامة والخاصة، واتساع الهوة بين الفئات التى تعتبر الثروة المعزولة قطبها المحروم الذى يزداد بؤسا باستمرار ويضمر باستمرار. والفئات التى تعتبر «لاص بلماص» [٩٢] ونواكشوط قطبها المقابل الذى يعشي عيون المحرومين ببرقانه ولكنه يظل موصد الابواب دونهم انه عالم «الغالية» و«الزين» و«فائزة» و«جمال» وكل

ب : بين الذاتية والموضوعية :

ورغم ما لاحظناه من سيطرة ضمير الغائب على القصة ـ الاسماء المتغيرة ـ وسيطرة الجانب التاريخي فيها وبالتالى سيطرة الراوي فإن المنظور الذاتي أي منظور الراوي وبالتالى الكاتب يبدو فى مستوى ثانوي بالنسبة للمنظور الموضوعي أي منظور الشخصية . ومن هنا فالتعليقات الشخصية للراوي قليلة بالنسبة إلى تعاليق الشخصيات ، ومع هذا فلديه بعض التعاليق ، مثل : « ـ . . . أصبح إسمه فى الاونة الاخيرة بلخير سعيا للتفاؤل بالخير أو لحاجة فى نفس يعقوب» [٩٣] .

فالعبارة الاخيرة : «لحاجة فى نفس يعقوب» هي تعليق من الراوي ، وكذلك يعلق على طمأنة عبد الصمد للقافلة بأنه قادر على دفع الاسد عنهم وارتياحه لتصديقهم له : « . . . مع أن ارتياحه كان له ما يبر ره فهو الوحيد من بين مرافقيه الذى سبق أن مر بهذا الطريق مرارا ذهابا وإيابا ، ويعلم علم اليقين أن الاسود نادرة الوجود فى هذا المكان» [٩٤] . ويعلق على نشاط «بوجناح» قائلا : « . . . وجرى بوجناح ـ كعادته فى السرعة والجدية ـ يمينا ويسارا» . . [٩٥] . فعبارة «كعادته فى السرعة والجدية» هي أيضا تعليق شخصي للراوي ـ ومثلها فى وصفه لقائد القافلة الفرنسية : « . . . تسمه الصرامة واحتقار المواطنين» . . [٩٦] . فعبارة احتقار المواطنين أيضا تعليق شخصي للراوي أما الاراء الكثيرة التى تحفل بها الرواية فإن الكاتب يوردها باستمرار على ألسنة شخصيات تتحاور فيما بينها : وقد تكون تعليقا فقط : « . . وياله من عربي أصيل» [٩٧] .

« . . شيئان لايجتمعان : قتل الفرنسيين والنوم فى موريتانيا» . . [٩٨] . «لله دره ـ أحمدو ولد حرمه ـ من بطل صنديد يتحدى الفرنسيين على قوتهم وتقدم هنادسهم التى قهروا بها الالمان ويشتمهم بين أعينهم ، ثم يهزم الاحزاب الموالية لهم ، ياله من بطل صنديد» [٩٩] . فصيغ التعجب هنا : «ياله ، لله دره . . . » كلها تعاليق شخصية لاحدى الشخصيات ومثلها «شيئان لايجتمعان» . . . وقد يكون إصدار رأي شخصي صريح كما فى تعليق إحدى الشخصيات على موقف أعضاء حركة الشباب من زعيمهم عند ما مرض : «على أي حال لم يكن موقف الاصدقاء متسما ، لا بالمسؤولية ولا بروح المبادرة» [١٠٠] . وكرأي حمادي ولد الزبير الذى هو من المجاهدين القدامى ، فى جيل الخمسينات من المناضلين خصوصا حركة الشباب : «أنا شخصيا لا أرتاح لسلوكهم ، يقولون انهم ضد فرنسا والاستعمار ، كما يقولون ، ان عادات آبائنا أيضا استعمارية [. . .] لو كانوا ضد الفرنسيين لما لبسوا لباسهم . . . » [١٠١] . وقد تحيل الشخصية الرأي إلى ضمير الغائب المجهول : . . . «يقال ان هتلر سيغلب الجميع ويقسم الدنيا إلى دولتين : دولة للالمان ودولة للعرب» . . . [١٠٢] . فهذا رأي شاع عند العرب إبان الحرب العالمية وليس لأحد بعينه ، وليس موضوع ثقة لذلك تقول الشخصية «يقال» فهو من باب القيل والقال .

وعلى الرغم من أن البطل فى الرواية يظل مظهره الخارجي مجهولا فنحن لانعرف عنه إلا أنه جميل الوجه عملاق ، وأنه بترت يده فى مرحلة من حياته ، أما شكله ولونه ـ وما إلى ذلك من السمات ـ فلا شيىء . ولكنه مع هذا يبقى الشخصية العاكسة للكثير من الشخصيات التى لانعرف عنها شيئا أكثر من علاقتها به : الذين ملكوه وعذبوه وبتروا ساعده لانعرف إسم أحد منهم ولا صفته ، وكذا الحال بالنسبة إلى عدد من الشخصيات اللاحقة : معلم بابا فى الزويرات ، وشامخ وبوعمامه ، وحتى الطبيب فنحن لانعرف عنهم إلا ما نعرف من خلال نظرة البطل إليهم . . فأغلب الشخصيات معكوسة والبطل هو الذى يعكسها . . .

ولاتختلف رواية [القبر المجهول] عن سابقتها ـ وهما لكاتب واحد ـ فهي مروية بضمير الغائب وقلما يظهر الراوى رأيه الخاص ، وغالبا ما يكون ضمنيا : «فى ذلك الزمن القديم جدا بالنظر إلى مدى اختلاف ظروف حياة أهله عن عادات وظروف حياتنا نحن أبناء اليوم» [١٠٣] . وقلما يرد بضمير المتكلم ، كما ورد هنا ، فالغالب أن يرد بضمير المجهول : «واندفعوا إلى نوع من الهجوم يعتبر غدرا وخسيسة وعيبا فى أعراف عربان الصحراء . . . » [١٠٤] . وكما فى وصفه للزمن

«حرف مشط شهور شيء شمس شيخ اشتاء شمالي الخريف أو شتائي آخر شهر الصيام» . . [١٠٥] . تعبيرات . «القديم جدا بالنظر إلى مدى» . . . «ويعتبر غدرا وخسيسة» . . . و«ثقيلة مثل ليالى» . . كلها تعاليق من الراوي نفسه . . . أما العبارات التى هي وجهة نظر شخصية من الشخصيات فهي الغالبة . ويمكن القول ان ثمة شخصيات عاكسة كديلول وشخصيات معكوسة كبيكر وشكرود وغيرهما من شخصيات أولاد اسويلم وأولاد عبد الرحمن وأولاد اعميرة ، فنحن لانرى شخصية ببكر عموما إلا من منظور ديلول : «وجه ديلول نظرة دهاء وفطنة إلى وجه الرئيس» . . [١٠٦] . ومثله الفارس الاعور وغيره . وكذلك لانرى فئة الزوايا إلا من خلال طالبنا ولانكاد نرى فئة حسان إلا من خلال شكرود ، ومن هنا فإن عدسة الراوي تتركز دائما على شخصية بعينها نرى من خلالها كافة الاشياء والقضايا . وقلما نجد المنظر البانورامي كما فى صورة معركة أولاد اسويلم وأولاد اعميرة التى نراها بعين ديلول رؤية عامة لاتركز النظر على شيء بعينه . . فنحن لانرى معركة شكرود والاعور ولامصرع ببكر ولا مذبحة ديلول لأولاد اعميرة وإنما نتعرف عليها من خلال حديث شخصية تروى عنها بعد الواقعة بزمن .

فالاولى يحدثنا عنها ديلول في سمره مع سلامي [١٠٧] . والثانية يحدثنا عنها الراوي فى تعليق شخصي . . [١٠٨] . والثالثة يحدثنا عنها سيلاك فى حوار مع زميله الذى ذهب معه للبحث عن شكار . . . [١٠٩] الخ . . .

* * *

والراوي فى قصة [أحمد الوادي] أكثر حذرا فلايستخدم ضمير المتكلم البتة ومع ذلك فقد يظهر من وراء حجاب شفاف جدا من خلال التلخيص : «تعاقبت السنوات وتوارى القاسم وراء السعى عن النقود [كذا!] في مارة المدينة المزدحمة بالمغامرات ولم تكن حياته الزوجية بالسعيدة ، فقد كانت الطموحات المادية للغالية والحريات المتبرجة التى تعتنقها تصطدم عليه الويلات والوساوس [. . .] وذات مصيبة [!] داخل فى معاملات تجارية . . . » . [١١٠] فصوت الراوي هنا يكاد يصرخ من وراء الوصف فعبارات : «المزدحمة بالمغامرات . . . الطموحات المادية . . الحريات المتبرجة التى تعتنقها الغالية . . . ذات مصيبة» ، ومن قبلها «الدعوة المزعومة» [١١١] . كلها آراء للراوي ذاتية . ويتجلى حذر الراوي فى هذه القصة فى إيجاز الفقرات التى ينقل فيها الاحداث قبل أن يحيل إلى نقل كلام الشخصيات المباشر بضمير المتكلم . فقلما تتجاوز هذه الفقرات سطرا أو سطرين باستثناء تلك الصفحة الوحيدة التى ورد فيها تلخيص للاحداث يقفز به الراوي تلك الثغرة الكبرى - التى أشرنا إليها من قبل - فى بناء الزمن [١١٣] . فالغالب فى القصة إذن هو الحوار . . والراوي عموما يسعى إلى أن يترك لشخصياته الحرية . وذلك مادفعه إلى جعل الاسترجاعات كلها تقريبا ترد على ألسنة بعض الشخصيات ، كما فى استرجاع [امبارك] لماضى أحمد . واسترجاع [دوامة] لماضى أسرة أحمد . واسترجاع شخص ما لماضى القاسم . . . ولقد ظل الضوء على امتداد الرواية مركزا على شخصية البطل [القاسم] فنحن لانرى الاشخاص إلا عندما يلتقى بها أو يفكر فيها ، ولانعرف عنها إلا ما يتعرف عليه من أمرها ، وماله صلة به من قضاياها ولكنه مع ذلك ليس الشخصية العاكسة الوحيدة فثمة شخصيات عاكسة أخرى مثل [دوامة] و[امبارك] الخ . وشخصيات نصف معكوسة كالام والتقية والاخت والغالية واسماعيل والمختار وأحمد . وأخرى معكوسة جملة كأفراد أسرة أحمد والجيد والزين . . .

الروايات الثلاث إذن تروى بضمير الغائب [هو] . ولكنها مع ذلك تختلف ، فالروايتان الاوليان يسيطر فيهما ضمير الغائب بحيث أن سرد الاحداث ووصف المشاهد الافتتاحية ترد على لسان الراوي أما الحوار فيرد لتفاصيل الاحداث وابراز المواقف يتكىء عليه الراوي لتجنيب نفسه اتخاذ الآراء وتبنى المواقف . وتختلف عنهما الثالثة فى أن الراوي فيها قلما يتدخل بأكثر من جملة يفتح بها المجال للحوار الذى يقوم بتقديم المادة القصصية والآراء والمواقف ، لذلك فإن ضمير المتكلم فيها مسيطر عموما . . وتتفق الروايات الثلاث فى أن الراوي والشخصية معا يتجنبان إبداء المواقف المباشرة والاعراب عن الآراء الصريحة ، وفي ان الراوي يكل الآراء والمواقف للشخصيات ، ويسعى إلى أن يكون موضوعيا عموما . كما تتفق فى

بقدم الكاتب فى القصة الحكاية إما بضمير الغائب وإما بضمير المتكلم. والاول يلائم الراوي، والثانى يلائم الشخصية. والحكاية تضم أحداثا وأشخاصا وأشياء. ويلائم الاحداث السرد. ويلائم الاشياء الوصف. والاول أداة الحركة الزمانية، والثانى أداة الاطار المكاني، وتقدم الاحداث والاشياء بكلام القاص بلا واسطة. او باقحام كلام شخصية من الشخصيات.

والخطاب المقحم: [١١٣].

١ ـ إما أن ينقل بلفظه دون تصرف فيسمى أسلوبا مباشرا.

٢ ـ وإما أن يحكى بتصرف فى لفظه فيسمى أسلوبا غير مباشر.

٣ ـ وإما أن يروى مضمونه دون لفظه، فيصبح الخطاب أقرب إلى الخطاب الاصلي غير المقحم، وسواء أكان الخطاب اصليا أم مقحما فانه يكون: اما سردا، سواء أكان سرد احداث أم وصف اشياء، وسواء أكان بضمير الغائب أم بضمير المتكلم. وإما حوار بين إثنين أو أكثر. وإما منلوكا داخليا، أي حديث النفس. والسرد المقحم إذا كان بضمير الغائب فإنه يكون الاسلوب غير المباشر، أما السرد بضمير المتكلم فهو مثل الحوار والمنلوك، كلها تكون الاسلوب المباشر على أن صفاء الاسلوب المباشر أو الاسلوب غير المباشر أمر لايتحقق إلا نادرا. فالمزج بينهما هو الغالب فهما يتداخلان ويقترب أحدهما من الاخر حتى كأنه هو، ويندر أن يرد الاسلوب المباشر فى الرواية غير مسبوق بأداة إقحام صريحة، كفعل القول أو ما يشبهه، أو إقحام ضمنى يستدل عليه من السياق. . . .

* * *

وفى رواية [الاسماء المتغيرة] يقدم الكاتب الحكاية بخطاب الراوي دون واسطة كما يقدمها بواسطة خطاب إحدى الشخصيات المقحم فى خطاب الراوي. وطبيعي أن يكون الاول بضمير الغائب والثاني بضمير المتكلم فى أغلب الاحيان. والاحداث تقدم بواسطة السرد الزمني. وكثيرا ما يلخص الراوي جملة منها فى بداية المقطع دون إقحام لخطاب شخصية من الشخصيات كما فى المقطع التالى: «. . وجاءت سنوات ٣٦ـ١٩٣٧ وسقطت فى بعضها أمطار النيسان ليعم الخصب نواحى كثيرة من البلاد الموريتانية وانتعش أهل البوادى ورجع كثير من المغتربين أيام الحرب إلى أهلهم. وظهر استقرار نسبي فى جوانب من الاحوال الاجتماعية رغم الضرائب الجديدة التى أثقلت كواهل المنمين، والفلاحين، ورغم عادة جمع الذبائح التى أصبحت متبعة منذ حرب ١٩١٤ العالمية حيث أجبرت كل قبيلة على إهداء مئات الثيران والاغنام إلى السلطات مساهمة فى إطعام الجيش الفرنسي، وكذلك تسخير الجمال ومالكيها لحمل البريد والزاد والذخيرة من أقصى البلاد إلى أقصاها». . . [١١٤]. فهذا تلخيص لجملة من الاحداث التاريخية يرويها الراوي كما يرويها المؤرخ بضمير الغائب فى جمل فعلية، فعلها ماض. أما إذا كانت المسائل المتقدمة أشياء لا أحداثا فإنها تنقل عن طريق الوصف بضمير الغائب أيضا كما فى: «تمرفقت مريم على وسادتها العادية وعيناها ساهرتان مفكرة منتظرة من سيحلب الناقةوالبقرة هذه الليلة، وكانت الرياح الشتوية الشمالية تصفر فوق قمم الخيم حاملة برودة الصحراء القارسة فى الليل». [١١٥] فهذا مقطع يصف مشهدا ورد بضمير الغائب وكانت أغلب جمله جملا إسمية والغالب فى هذه الرواية أن يكون الخطاب المقحم بضمير المتكلم سواء أكان منلوكا أم كان حوارا. وقلما يحدث تغيير على نص الخطاب الاصلي. وقد يقحم بواسطة السياق. دون تصريح بفعل القول أو ما فى معناه كـ« وعاد سيفيل بوجناح ليلة إلى العريش مهموما واتكأ أمامه [. . .] وحيدا مفكرا [. . .] ما أصعب الحرية لاسيما إذا كان المستمتع بها لاأصل له ولا اصدقاء! وخصوصا إذا فشل فى تأمين المعاش واللباس [. . .] يومان وغدا هو الثالث لم آكل شيئا! إن الجوع يعبدنى. يا إلهى! يسخرنى، يسجننى، يعذبنى ولكنى حر على كل حال، وها أنا أجلس دون رقابة، أنام بدون رقابة». [١١٦]. وقد يقحم بواسطة فعل القول: «وقال لنفسه ان المعلومات الموجودة عندنا تؤكد أن المتهم ليس نهضيا، وصلته بالمغرب لم يؤكدها ولم يظهر منها الاشمئزاز الذى يبديه حيال النهضة والنهضيين ولكننا لانملك براهين قطعية لاثباتها. على أنه يبدو مستعدا لكل شيء فى سبيل بقاء أعماله التجارية مستمرة، فهل يمكن استدراجه

لنسمع نشرة الاخبار المسائية باللغة الفرنسية . ـ ستأتى بعد نصف دقيقة . ـ ساعتى منضبطة أكثر من ساعتكم . . . ـ بل تباهى بها دواما، وهي أفضل قليلا من علب السردين الفارغة». [١١٨].

وقد استخدم طريقين على الاقل دون إقحام بفعل القول : «ـ إليكم أيها السادة والسيدات نشرة أنبائنا الثالثة [. . .] رئيس الدولة يلقى خطابا أمام البرلمان . حول العملية الارهابية الوحشية فى مدينة النعمة [. . .] تشكيل محكمة جنائية لمحاكمة المجرمين . [١١٩]. وقد استخدم أيضا صوت المحاضر: «. أما الخلاصة العامة لما سبق عرضه فى القسم الثالث من المحاضرة فيمكن إجماله فى النقاط التالية» . . . [١٢٠]. واستخدم أيضا الرسالة « . . . الحمد لله الذى جعل الاقلام راحة للاجسام، وتغنى عن المشافهة بالكلام، وبعد فإلى الوالد [. . .] ولكنى عريان جدا ومع [البرانيين]. وأرسلوا إلي اللباس، وقاكم الله من الباس» . . [١٢١].

ولقد اعتمد الكاتب فى روايته اللغة الفصحى سواء أكان ذلك فى السرد أم فى الحوار، ومع ذلك فقد استخدم بعض التعابير العامية أحيانا : «العض» [١٢٢] = البعوض. «المفضوح» [١٢٣] = السافل . «جلابة صغيرة» [١٢٤] = مجموعة قليلة من باعة المواشى . «تواتروا على» [١٢٥] = تواتر رأيهم على . «حوائج» [١٢٦] = بضائع . «العليل» [١٢٧] = المعتوه . «تبور» [١٢٨] = تعنس . «يكاتبون» [١٢٩] = يدخلون تحت سلطة . . . «الشدة» [١٣٠] = الضائقة . «البرانيين» [١٣١] = الاجانب . «البرقاطة» [١٣٢] = الزورق .

كما استخدم جملة من الكلمات الاجنبية الدخيلة فى اللهجة المحلية : «بيركجة» [١٣٣] [(Brigadier)] «كوية» [١٣٤] (Convoi)]. سيفيل [١٣٥] [(Civil) .] «الهنكليين» [١٣٦] [(Les Anglais)]. «الصنكة» [١٣٧] (La Sangle)]. «جنس» [١٣٨] (La Jeunesse)]. «البطرون» [١٣٩] [. (Patron)] .

* * *

وتروى رواية القبر المجهول كسابقتها بضمير الغائب، ويسرد فيها الراوي الاحداث دون إقحام بضمير الغائب بنفس الطريقة التى رأينا فى الرواية السابقة : «نهض ديلول مودعا يسير ناحية جمله فيما لعلع الرصاص وانفجارات البارود، وتضاعفت الزغاريد والراقصون بالبنادق يناورون ويتضاربون تضاربا شكليا، وطبطبت الطبول فى وقت واحد تصحبها أناشيد [فاغو] الحماسية [. . .] وتكلم ديلول قبل أن يركب جمله مخاطبا رجلين من الحي يقفان ازاءه» [١٤٠]. فالمقطع إذن نقل لاحداث وقعت فى الماضى . جاءت جمله فعلية وأفعال الجمل الرئيسية ماضية . وهي تعبر عن أحداث تلاحقت فى الزمن، أما المشاهد فيقدمها عن طريق الوصف والجمل الاسمية : « . . أول تلك الاحياء من قبيلة أولاد اسويلم : [حسانيون] محاربون أشداء، كسبهم من المواشى قليل، إلا أنهم مسلحون بالبنادق، ولديهم بعض الخيول المسومة العتيقة، أما الحي الثانى فقبيلة أولاد عبد الرحمن . عشيرة [زوايا] من قبائل العلم المتخصصة فى تدريسه والعمل بمقتضاه، مجردة من السلاح ولكن لديها مواش كثيرة، والثالث حي قبيلة أولاد احميدان . [ازناكه] عزل تقريبا من السلاح والعلم، ولكن مواشيهم أكثر من حيوانات الحيين الاخرين مجتمعين» . . [١٤١].

فالمقطع تقديم للفئات الاجتماعية الثلاث الفاعلة فى حركة الاحداث فى الرواية وهو وصف بجمل اسمية . أما الخطاب المقحم فهو كما فى الرواية السابقة يرد بأسلوب مباشر غير مقحم بفعل القول كما فى : [تذكرت حين غادرها ديلول قائلا] : «سأراك غدا» . يريد أن أهيىء له إجابتى؟ أن أكون زوجته فى المستقبل، أو أرفض، ويمارس أعمالا إجرامية ضدنا . إلهى ماذا سيفعل؟ يسوق الابل أم يقتل الاطفال؟ اللهم الطف بنا فى قضائك وقدرك» (١٤٢]. فالمقطع من «يريد أن . . . » منلوك مباشر جاء بضمير المتكلم وبأسلوب إنشائي تكثر فيه الاساليب الطلبية ولم يقحم بعبارة القول . وقد يقحم بما يشبه القول : «كان فى قمة أزمات تعكر مزاجه التى تعذبه وقتا طويلا، كلما ثارت فى نفسه، التى حدثته، وهو يمشى فى اتجاه

الصيف، ضروع الابل شبه جافة، والمطر نزل منذ يومين فقط! الاغنام التى تعود ملكيتها لنا بعيدة». . [١٤٣].

فالمقطع منلوك ذاتي أقحم بعبارة «حدثته». واحتفظ كما هو بتداعياته الفكرية، وامتزاج أساليبه الخبرية والانشائية والسردية والوصفية، وجمله الاسمية والفعلية. وأغلب الحوار فى الرواية - وهو كثير - مقحم بفعل القول تعوض فيه المطة اسم المتكلم حتى ولو كان المتحاورون كثرة بحيث لانفرق بينهم فى الادوار: و«قالت فراحة بنت العوكاي، زوجة ديلول: - آه لها! مسكينة هذه المرابطة! كم يؤلم قلبى حالها! وسأل رجل قادم إلى المكان من طرف الحي الاخر: - هل مازالت حية؟ - لعلها! ربما معها بقية من حياتها! - نعم صدرها مازال يعلو ويهبط. ولكنها تتنفس بصعوبة». . [١٤٤]. فأسلوب الحوار يمتاز بالاقتضاب والمباشرة، وإن كان إيراده بالفصحى يحد من حيويته وتلقائيته. وهو هنا بين اثنين قدمهما الراوي، ولكنه فى المقطع التالى بين جماعة لانعرف منها غير البادئى: «وقال: - لقد حسمت المعركة. . . لاريب فى ذلك. - انظروا، لقد سحق جيش أولاد اسويلم. هل ترونهم؟ . . . - لم يبق من رجالهم العدد الكافى لمتابعة الحرب لقد باروا وهلكوا لارحمهم الله» [١٤٥]. ولانجد فى هذه الرواية حوارا غير مسبوق بفعل القول المقحم،ولئن توخى الكاتب اللغة الفصحى فإنه مع ذلك لجأ إلى بعض العبارات أحيانا أو الالفاظ التى هي من اللهجة. ولكنه كثيرا ما يشرحها بين قوسين بعدها أو خلال السياق، أو يجعلها بين مزدوجتين «هل ضربت اليوم [اكزانتك] على الرمل» [١٤٦]. فالسياق هنا يفسر كلمة [اكزانة]. وعبارة «نداء الخوف» [١٤٧] وقعت بين مزدوجتين: أي صراخ الخائف: و«تحمل عنه البأس» مثلها أي تفديه من الشر. [١٤٨] «البوارق الشرقية الصلوانية» [١٤٩]. أي فى جهة الصلاة وقد يعكس الامر فيورد المعنى أولا ثم يجعل اللفظ المحلي بين قوسين بعده: «اعلموا أن الغيوم الصيفية الخفيفة «آمريك». . . [١٥٠] وقد يورد العبارة دون إشارة إلى معناها المحلي إذا كان لها أصل فى المعجم الفصيح: «أرى بريقا أعمش» [١٥١] = خافتا. «ردم النجوم» [١٥٢] = ارتفاع الغبار فى أيام لفح السموم، وقد نجد فى الاسلوب بعض الثقل كما في: «كان في قمة أزمات تعكر مزاجه التي تعذبه وقتا طويلا [١٥٣] فتتابع اربع اضافات يتلوها موصول يرتبط باسم لا يليه مباشرة، ثم يتلوه موصول اخر يماثله ادخل على الجملة إبهاما وهلهلة في التركيب».

* * *

ولئن بدأ الاسلوب فى الروايتين السابقتين متماثلا بحيث إن الخطاب المقحم ظل كما هو ووزد فى صنفيه: المنلوك والحوار دون تغيير فى بنيته النحوية. وظل سرد الاحداث ووصف الاشياء معتمدا على خطاب الراوي الخالي من الاقحام فإن الرواية الثالثة [أحمد الوادى] امتازت عنهما بندرة تدخل الراوي. فقلما نجده إلا فى جملة أو جملتين، فالرواية تبدأ بجملة يتلوها الحوار مباشرة: «جلس القاسم إلى جوار والدته وسألها: - كيف حال سكان الركينة»؟ . . «- لابأس عليهم، وجلهم ترك الوادى» [١٥٤].

فالرواية كسابقتيها مروية بضمير الغائب، ولكن هذا الضمير لايظهر إلا فى جملة أو جملتين تقدمان الحوار المباشر بضمير المتكلم، إلا فى حالة استثنائية. والغالب فى الحوار أن يقحم بفعل القول. والحوار هو الغالب فى الرواية إجمالا ولكنه قد يظهر معه أسلوب مباشر حر. يقترب من المنلوك وليس إياه، كما فى هذين التلخيصين اللذين يرد أحدهما كالتالى:

[. . .] ١ - أحمد متعلم تعليما عصريا ودينيا.

٢ - جميع أفراد عائلته ماتوا فى حوادث تتعلق بالسيارة من قريب أو من بعيد. .

٣ - أسس نظاما فى الوادى باركه الكل، وقام بجهد موفق لتثقيف السكان. . .

كيف سمح لنفسه بالحياة فى هذا الوادى وهو يحمل تلك المؤهلات. . .» [١٥٥].

فالخطاب قريب من تداعيات الشخصية. . . ولكنه لولا ظهور صيغ الاستفهام فى آخره لما استطعنا الجزم بأنه أسلوب

المائة الرابعة، جلهم من الشيوخ والنساء! . . . فهمت! ربما يكون أسياد أحمد فكروا جيدا واختاروا هذه المنطقة بالذات المعروفة بالتحركات التحريرية فى عهد الاستعمار والمعروف أهلها بالكد والعمل» [١٥٦]. وقد استعمل الخطاب المقحم بمعناه دون لفظه ذات مرة: «قال لك انى قلت له يقول كذا [كذا!]. . . . . ثم عدلت عنه وقلت له . . . طلبت منه أن يقتصر على تبليغك بأنى لن أرجع قبل المساء» . . . [١٥٧]. ولعلها المرة الوحيدة التى استعمل فيها هذا النمط من الاقحام فى هذه الرواية وفى سابقتيها.

وكما هو واضح من الجملة السابقة: «قال لك انى قلت له يقول . . . » ففى العبارات والتراكيب قلق وتكسر فى التركيب كما فى الصفحات [١٤، ١٣، ١٦، ٢٥، ٢٦، ٤٢، ٤٥، ٤٩، ٥٠، ٥٦، ٥٩]. ففى كل هذه الصفحات عبارات من نوع «قدر كيف فكر». «يسمونه أهل الاودية» . . «أنا متعطش على ماذا فى الحلقات . » ـ ولعل كونه العمل الاول لصاحبه يشفع له فى ذلك، إضافة إلى ما قد يكون وقع فى الاخراج.

وتترتب الفقرات في الراوية ترتيبا زمنيا منطقيا وتمتاز بأن كل فقرة لها عنوان يبين محتواها، مدمج فى سياق النص غالبا، وهذا ما جعل الكاتب يضع لعمله فهرسا فى النهاية اعتمادا على هذه االعناوين، وهو أمر ليس معتادا فى عالم الرواية، فالرواية عمل واحد من البداية إلى النهاية. ومفاصله لايمكن أن تكون كمفاصل الدراسة.

وفى ختام هذه المعالجة يمكن للمرء أن يخرج بملاحظات منها:

ـ أن فن الرواية جديد فى الادب العربي بموريتانيا، وتمثل النصوص الثلاثة المعالجة أولى المحاولات فيه. وقد ظهر أقدمها سنة ١٩٨١.

والمجتمع الموريتاني ظل مجتمعا بدويا حتى العقود الاخيرة، والرواية بنت المدينة، وحياتها الزاخرة بالصراعات، والطريف فى هذه الروايات أن إحداها لاتظهر فيها المدينة أصلا، وأخرى لاتظهر فيها إلا فى آخرها. وأبطال هاتين الروايتين: [القبر المجهول والاسماء المتغيرة] يعسر تصنيفهم فى فئة محددة من فئات المدينة، لأنهم ليسوا من عالم المدينة أصلا، فكلتا الروايتين ملحمتان بدويتان أي أنهما خرق تام لمقولة هيجل «الرواية ملحمة برجوازية» [١٥٨]. إذا اعتبرنا أن النسبة هنا تعنى مضمون الرواية لامنتجها ومتقبلها، أما إذا اعتبرنا هذين موضوع النسبة فإن الامر يختلف، ولعل ملاحظة باختين [ت ١٩٧٥] عن نشأة الرواية وارتباطه بالثقافة الشعبية [١٥٩]، تصدق على هتين الروايتين أكثر من غيرهما.

ولكن رواية أحمد الوادى رواية تعكس أزمة البرجوازية الصغيرة الناشئة والمطلوبة على جسر الحيرة بين النموذج البدوي الذى يعود إلى قرون خلت: عالم «القبر المجهول»، وعالم السماسرة وعبدة الدولار.

ولئن كانت رواية الاسماء المتغيرة محكومة بنظرة التمجيد للمقاومة الوطنية والغيرة الوطنية، فإن رواية القبر المجهول محكومة بنظرة تفسر كل شيىء بالعامل الطبيعي وتتسم بالقلق إزاء الصراع القبلي وايديولوجية المهيمنة، والرواية الاولى محكومة بجو سنوات الامل فى بداية عقد السبعينات، والثانية محكومة بجو سنوات الاحباط فى نهاية السبعينات وبداية الثمانينات.

أما رواية أحمد الوادى فيوجهها إحساس حاد صاحب سنوات الاحباط عند مثقفى البلد هو إحساسهم بالعجز عن سد الفجوة بين الواقع والطموح، وهو إحساس كما يتضح من الرواية يصل إلى حد دفن الرأس فى الرمال على غرار فعل النعامة.

وبغض النظر عن القيمة الفنية لهذه النصوص ـ وهو أمر تحدثنا عنه فى مكان غير هذا، فإن هذه النصوص تعكس الخط الذى يسير فيه هذا الفن منذ نشأته عندنا، وهو خط وثيق الصلة بالقضايا الوطنية الاساسية، ومن هنا فهي تعكس أهم القضايا الوطنية: البحث عن الانتماء والعمل. انهيار البنى الاجتماعية والانتاجية التقليدية، الهجرة من الريف إلى

عند مجتمعنا ومثقفنا بقدرما تعكس المستوى الفني عندهما في مرحلة تكوينه الاولى وكلا المستويين يتحرك ويتطور بسرعة، ولكن سمة كل بداية هي التعثر وضبابية الرؤية.

هـــوامـــــش:

١ ـ حسام الخطيب: فؤاد الشايب وأدب القصة: المعرفة ع ٢٦٢/ ٨٣ سوريا ص١٤٠

* يمثل هذا المقال الفقرة الثالثة من الفصل الثالث من عمل لم ينشر بعد، بعنوان: التجديد في الادب العربي بموريتانيا في العصر الحديث لنفس الكاتب.

٢ـ ص ١٤١

٣ـ ص ١٦١

٤ـ ص ١٩٦

٥ـ ص ٠١٧

٦ـ ص ٠٥٣

٧ـ ص ٠٢٠

٨ـ ص ٠١٢

٩ـ ز ٠١٦

١٠ـ ص ٠٣٣

١١ـ ص ٠٣٢

١٢ـ ص ٠١٢

١٣ـ ص ٠٢٩

١٤ـ ص ٠١١

١٥ـ ص ٠٣٤

١٦ـ ص ٠١١

١٧ـ ص ٠١٠

١٨ـ ص ٠٤٦

١٩ـ ص ٠٤٧

٢٠ـ ص ٠٤٦

٢١ـ ص ٠٤٣

٢٢ـ ص ٤٤ـ٤٥

٢٣ـ ص ٠٤٨

٢٤ـ ص ٠٩٣

٢٥ـ ص ١١٩

٢٦ـ ص ١٢٨

٢٧ـ ص ١٤٦

٢٨ـ ص ١٤٧

٢٩ـ ص ١٦٣

٣٠ـ ص ١٩٢

٣١ـ ص ٠٠١

٣٢ـ ص ١٨٧

٣٥ـ ص ١٣٢

٣٦ـ ص ٢٥٦

٣٧ـ ص ٢٣٩

٣٨ـ ص ٠٣٧

٣٩ـ ص ٢٠٧

٤٠ـ ص ٢٤٣

٤١ـ عادة محلية تقتضى ان
فاطمة الزهراء يتكسبون ب
ويسمون ما يجمعون هدية

٤٢ـ ص ٢٥٢

٤٣ ـ عبارة من اللهجة مع
بل يستغلونه لسلطتهم الر

٤٤ـ عبارة أقرب إلى اللهـ
يتسترون وراء مظهرهم و
من الصالحين.

٤٥ـ ص ٨٠

٤٦ـ ص ١٧

٤٧ـ ص ١٩

٤٨ـ ص ٠١٠

٤٩ـ ص ٠١٢

٥٠ـ ص ٠١٢

٥١ـ ص ١٧٥

٥٢ـ ص ١٧٥

٥٣ـ ص ١٧٥

٥٤ـ بثرق منطقة انشيرى

٥٥ـ ص ١٧٦

٥٦ـ ص ٠٢١

٥٧ـ ص ٠٤١

٥٨ـ ص ٠٣٦

٦٠ـ ص ٠٢٥

٦١ـ ص ٢٠٥

٦٢ـ ص ٢١٠

٦٣ـ ص ٢٠٣

٦٤ـ ص ٢١٧

٦٥ـ ص ٠٠٩

٦٦ـ ص ١٢٠

٦٧ـ ص ٠٠٤

٦٨ـ ص ٠٦٣

٦٩ـ ص ٠٦٥

٧٠ـ ص ٠٧٤

٧١ـ ص ٠٧٢